صفية

بنت حيي

رضي الله عنها

صفية بنت حيي رضي الله عنها

من هي؟

هي صفية بنت حيي بن أخطب بن شعبة..... بن النضير بن النحام بن تحوم، من بني إسرائيل وسبط (**هارون بن عمران**).

أمها (**برة بنت سموأل**).

قال ابن زبالة في «**المنتخب**»: إن اسم صفية رضي الله عنها هو: حبيبة، ولكنها سميت صفية؛ لأنها كانت صفية رسول الله ﷺ يوم خيبر، وكانت كنيتها (**أم يحيىٰ**).

نشأتها:

تروي لنا صفية رضي الله عنها: أنها ما رأت في طفولتها من حقد أبيها وقومها علىٰ الإسلام وعلىٰ النبي ﷺ عندما قدم إلىٰ المدينة.

قال ابن اسحاق: وحدثني عبد الله بن أبىٰ بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: حدثت عن صفية بنت حيي بن أحطب أنها قالت: «**كنت أحب ولد أبي إليه وإلىٰ عمىٰ أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه**».

قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف إذا عليه أبي (**حيي بن أخطب**) وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين[1]، قالت: فلم يرجعا حتىٰ كانا مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينىٰ[2] قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليّ واحد منهما مع ما بهما من الغم، قالت: وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟؟ قال: نعم والله.. قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت.

---

(1) أي في ظلمة الليل.

(2) مشية فيها فتور وضعف.

رحيل من المدينة:

ووادع رسول الله ﷺ من بالمدينة من اليهود، وكتب بينه وبينهم كتابًا، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قيقاع؟، وبنو النضير، وبنو قريظة.

كانت صفية وأبوها حيي بن أخطب من بنىٰ النضير، وكان أبوها من زعماء القبيلة وكبرائها.

وقد نقض اليهود عهدهم مع النبي ﷺ، وحاول بنو النضير قتل النبي ﷺ وهو مستند إلىٰ جدار حائط من بيوتهم؛ فلما ذهب أحدهم عازمًا علىٰ أن يلقي علىٰ رسول الله ﷺ صخرة من فوق الجدار؛ أخبره جبريل بذلك، وقام من توِّه ثم بعث إلىٰ بني النضير يأمرهم بالخروج من المدينة، ولكنهم تمنعوا، وبعث رئيسهم حيي بن أخطب لرسول الله ﷺ يقول: **(إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك)**.

فأدىٰ ذلك إلىٰ أن فرض المسلمون عليهم الحصار حتىٰ أجلوهم عن المدينة.

* وكان من أشرافهم الذين ساروا إلىٰ خيبر: **(سلام بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع، فلما نزلوها دان لهم أهلها)**.

في خيبر:

فكانت صفية من يهود خيبر، وكان أبوها سيدهم المطاع، فعاشت معهم في رغد ونعيم. ولما اشتد عودها كان أشراف القوم يطمعون في الزواج منها، فتزوجها سلام ابن أبي حقيق، ثم خلف عليها كنانة بن أبي حقيق، **(وكانا من شعراء اليهود)**.

مقتل حيي بن أخطب:

نقضت بنو قريظة عهدها مع رسول الله ﷺ، وناصرهم حيي بن أخطب، وكان ممن يؤلب القبائل العربية واليهودية علىٰ محاربة الإسلام ونبيه ﷺ، وهو الذي أقنع بني قريظة بضرورة نقض العهد، وهزمت بنو قريظة، وحكم علىٰ رجالهم بالقتل لخيانتهم.

فلما أقبلت بنو قريظة أتي به - أىٰ حيي بن أخطب - مكتوفًا بعد، فقال حيي للنبي ﷺ: أما والله ما لمت نفسي علىٰ عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذله، فأمر به النبي ﷺ وضربت عنقه... ثم إنه أقبل علىٰ الناس قبل تنفيذ حكم الإعدام، وقال لهم: أيها الناس.. إنه لا بأس بأمر الله.. كتاب وقدر، وملحمة كتبها الله علىٰ بني إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه.

وفي السيرة النبوية أيضًا: لقد تجلد حيي، وتقدم لتضرب عنقه حتىٰ لا يشمت فيه شامت، وهو يعرف أنه علىٰ باطل، ظالم لنفسه... ومع هذا يموت علىٰ ذلك، والعزة بالإثم تأخذه إلىٰ جهنم وبئس المصير.

كما أن عداوة حيي للرسول ﷺ باعثها الحسد والحقد.

* لقد اعترف أبو صفية بأن الله قد خذله بمقولته هذه قبل موته، واعترف أيضًا أنه لم يكن مع الله، وإنما كان مع الشيطان.

زواج صفية من رسول الله ﷺ:

توجه النبي ﷺ إلىٰ خيبر في العام السابع الهجرىٰ، وكانت لهم حصون منيعة لا يقدر علىٰ اقتحامها جيش إلا بجهد جهيد وسلاح عتيد.

وتم نصر المسلمين علىٰ خير وجه، وأحرزوا الكثير والكثير من أموال اليهود، وسبَوا الكثير والكثير من النساء والزراري.

* وكانت صفية بنت حيي من السبايا، جاء بها بلال بن رباح من حصن أبي الحقيق ومعها بنت عم لها، فمر بهما علىٰ القتلىٰ وقد تناثرت أشلاؤهم هنا وهناك، فلما رأتهم المرأة التي مع صفية صاحت صياحًا شديدًا، ولطمت وجهها، وحثَ التراب علىٰ رأسها، وفعلت بنفسها الأفاعيل، فلما رآها رسول الله ﷺ قال: «**أغربوا عني هذه الشيطانة**» فأبعدوها عن ساحته.

وأما صفية فقد كانت تتميز برباطة الجأش، فلم تفعل مثلما فعلت صاحبتها، بل تماسكت وكظمت غيظها... فعرف الرسول قدرها فرضيها لنفسه.

وقد عاتب النبي بلالًا علىٰ ما فعله بهاتين المرأتين فقال: «**يا بلال، أنزعت منك الرحمة حين تمر بامرأتين علىٰ قتلىٰ رجالهما!!**»[1].

وقد حاز النبي صفية لنفسه تكريمًا لها؛ فهي سيدة قومها وبنت سيدهم، فإكرامها نخوة عربية... وقد أبصر فيها سماحة تدعوها إلىٰ الإسلام، ورأىٰ في وجهها وجاهة تدل علىٰ سلامة قلبها وحسن استقبالها لهذا الدين القيم[2].

---

(1) تاريخ الطبرىٰ 2/ 302.

(2) مؤمنات لهن عند الله شأن، دكتور محمد بكر إسماعيل.

ويذكر الصلابي في السيرة النبوية: إنما أراد إعزازها وتكريمها وصيانتها من أن تفترش لرجل لا يعرف لها شرفها ولا نسبها في قومها... وهذا إلىٰ ما فيه العزاء لها.

كما أن فيه رباط المصاهرة بين النبي واليهود؛ عسىٰ أن يكون في هذا ما يخفف من عدائهم للإسلام والانضواء تحت لوائه والحد من كرههم وسعيهم بالفساد.

* وعن أنس أن النبي ﷺ أعتق صفية، وجعل عتقها صداقها[1].

وعن أبي موسىٰ قال: قال رسول الله ﷺ في الذي يعتق جاريته ثم يتزوجها له أجران[2].

* فلما انقضت عدة صفية من زوجها كنانة بن الربيع حملها النبي ﷺ وراءه إلىٰ منزل علىٰ ستة أميال من خيبر، وأراد أن يعرس بها، فأبت، فوجد النبي ﷺ في نفسه، فلما سار ووصل الصهباء مال إلىٰ دومة هناك فطاوعته، فقال لها: ما حملك علىٰ إبائك حين أردت المنزل الأول؟ قالت: يا رسول الله خشيت عليك قرب يهود.

* وكان أبو أيوب الأنصاري يحب رسول الله ﷺ حبًّا جمًّا، ويحرص علىٰ راحته ويحميه من كل ما يؤذيه ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً ؛ فلما رآه قد دخل علىٰ صفية رابه شيء منها، فبات يحرسه حتىٰ أصبح، وكان يطوف بالخيمة التي هو فيها مع صفية، فلما خرج النبي ﷺ مبكرًا، كبَّر أبو أيوب حين أبصره، فسأله النبي ﷺ: **(مالك يا أبا أيوب؟!)**

قال: لم أرقد ليلتي هذه يا رسول الله، قال: ولم يا أبا أيوب؟؟ قال: لما دخلت بهذه المرأة ذكرت أنك قتلت أباها وأخاها وزوجها وعامة عشيرتها، فخفت أن تغتالك يا رسول الله.

فتبسم رسول الله ﷺ وأثنىٰ عليه.

وقد كان النبىٰ ﷺ يعلم بنور الله أن صفية قد حسُن إسلامها، وأنها أحبته حب الزوجة للزوج، وحفظت له حسن صنيعه بها.

عطف النبي ﷺ ورحمته بصفية:

عن ابن عمر رضي الله عنه قال: كان بعيني صفية خضرة، فقال لها النبي: ما هذه الخضرة

---

(1) أخرجه مسلم.

(2) أخرجه مسلم.

بعينيك؟ قالت: قلت لزوجي: إني رأيت فيما يرىٰ النائم كأنَّ قمرًا وقع في حجري فلطمني، وقال: أتريدين ملك يثرب.

قالت: وما كان أبغض إليّ من رسول الله ﷺ؛ قتل أبي وزوجي، فمازال يعتذر إليّ وقال: «**يا صفية، إن أباك ألّب عليَّ العرب وفعل وفعل**» حتىٰ ذهب ذلك من نفسي[1].

* كان زوجها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق صاحب حصن القموص، أعظم حصن في خيبر، وقد اقتحم المسلمون الحصن بعد نضال عسير، وجيء بكنانة حيًّا، وكان عنده كنز بني النضير، فسأله النبي ﷺ عنه فجحد أن يكون يعرف مكانه، فقال ﷺ: أرأيت إن وجدناه عندك أأقتلك؟ قال: نعم.

فلما اكتشف مخبأ الكنز عنده دفعه النبي ﷺ إلىٰ محمد بن سلمه فضرب عنقه.

* بذلك يكون قد اقتصَّ الله تعالىٰ منه ما فعله بصفية رضي الله عنها.

صفية في بيت النبوة:

عادت صفية رضي الله عنها مع النبي ﷺ إلىٰ المدينة بعد أن بنىٰ بها في الطريق، وكانت في قمة السعادة؛ لأنها ستكون واحدة من أمهات المؤمنين.

* عن آمنة بنت قيس العقارية قالت: أنا إحدىٰ النساء اللاتي زففْن صفية يوم دخلت علىٰ رسول الله ﷺ، فسمعتها تقول: ما بلغت سبعة عشر سنة يوم دخلت علىٰ رسول الله ﷺ[2].

الكريمة صاحبة القلب الرقيق:

ولما انتقلت صفية رضي الله عنها إلىٰ دور النبي ﷺ كانت تحمل كل الخير لأخواتها (**أمهات المؤمنين**)، فقد بدأت بتقديم الهدايا لهن؛ ولكنها بدأت بريحانة رسول الله ﷺ ابنته فاطمة، فقدمت لها هدية غالية.

* عن ابن المسيب قال: قدمت صفية وفي أذنيها خرصة من ذهب، فوهبت لفاطمة منه ولنساء معها[3].

---

(1) رواه الطبري، وصححه الألباني.

(2) صحابيات حول الرسول، محمود المصرىٰ.

(3) رواه بن سعد، وقال رجاله ثقات.

*ولكن صفية مع ذلك كانت تشعر بغربة شديدة؛ لأن أزواج النبي ﷺ لا يستطعن أن ينسين أصلها، وأنها كانت في يوم من الأيام يهودية، ولكن الله أعزَّها وأكرمها بنعمة الإسلام.

* عن أنس قال: بلغ صفية أن حفصة قالت: بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي، فقال: ما يبكيك؟ قالت: قالت لي حفصة أني بنت يهودي، فقال النبي ﷺ: إنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، ففيمَ تفخر عليك؟ ثم قال: اتقي الله يا حفصة[1].

* وفي رواية أخرى: قال لها رسول الله ﷺ: ألا قلت لهما (**أي عائشة وحفصة**): كيف تكونان خيرًا مني وأبي هارون، وعمي موسى، وزوجي محمد؟؟

* وحدث شيء قريب من ذلك من زينب بنت جحش رضي الله عنها، فغضب النبي ﷺ لذلك.

* عن صفية بنت حيي: أن النبي ﷺ حج بنسائه، فبرك بصفية جملها، فبكت، وجاء رسول الله ﷺ لما أخبروه فجعل يمسح دموعها بيده وهي تبكي، وهو ينهاها، فنزل رسول الله ﷺ بالناس، فلما كان عند الرواح قال لزينب بنت جحش: أفقري أختك جملاً - وكانت أكثرهن ظهرًا - فقالت: انا أفقر يهوديتك!

فغضب رسول الله ﷺ، فلم يكلمها حتى رجع إلى المدينة ومحرم وصفر[2].

مكانة صفية عند النبي ﷺ:

ها هو موقف عظيم يوضح مكانة صفية في قلب النبي ﷺ:

* عن صفية بنت حيي قالت: كان النبي ﷺ معتكفاً، فأتيته أزوره ليلاً فحدثته، ثم قمت لأنقلب، فقام معي ليقلبني -وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد- فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: (**على رسلكما، إنها صفية بنت حيي**)، فقالا: سبحان الله... يا رسول الله ! قال: إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرًّا أو قال «**شيئًا**» [3].

---

(1) رواه أحمد والترمذي.

(2) أخرجه أحمد في المسند..

(3) رواه مسلم.

صفية الصافية:

وجد العديد من المواقف التي تدل علىٰ عقل صفية وحلمها وصفاء قلبها من هذه المواقف:

- كانت صفية تجيد صنع الطعام؛ لأنها كانت من قوم يعدون في بيوتهم الموائد الشهية ذات الأصناف المتعددة؛ فصنعت يومًا طعامًا للنبىٰ ﷺ، فما أن مد يده إليه حتىٰ أخذت الغيرة عائشة رضي الله عنها فأمسكت الإناء فكسرته بما فيه، فلما رأت عائشة سوء صنيعها وتحلم النبي ﷺ عليها راجعت نفسها، واعتذرت عما بدر عنها للرسول ﷺ ولصفية رضي الله عنها، وقالت: يا رسول الله ما كفارة ما صنعت؟ فقال عليه الصلاة والسلام: **(إناء مثل إناء وطعام مثل طعام)**[1].

- عن زيد بن أسلم: أن نبي الله في وجعه الذي توفي فيه قالت صفية بنت حيي: والله يا نبي الله، لوددت أن الذي بك بي، فغمزها أزواجه فأبصرهن فقال: «**مضمضن**»، قلن: من أي شيء؟ قال: من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة[2].

ومن هنا كانت أم المؤمنين صفية ذات سريرة صافية وعلانية نقية، فقد أحبَّت رسول الله ﷺ وصدقت في حبها لله عزوجل، فجاءت تصرفاتها نابعة من معين الصدق والوفاء، وشهد لها النبي ﷺ بالصدق.

- وها هو موقف آخر يدل علىٰ صفاء النفس «**قال أبو عمر بن عبد البر: روينا أن جارية لصفية أتت عمر بن الخطاب، فقال: إن صفية تحب السبت، وتصل اليهود فبعث عمر يسألها، فقالت: أما السبت فلم أحبه منذ أن أبدلني الله به الجمعة، وأما اليهود فإن لي فيهم رحمًا، فأنا أصلها، ثم قالت للجارية: ما حملك علىٰ ما صنعت؟ قالت: الشيطان. قالت: فاذهبىٰ فأنتىٰ حرة**» [3].

لقد كانت رضي الله عنها تستطيع أن تنتقم لنفسها، ولكنها تعلمت العفو عند المقدرة من صاحب الخلق العظيم محمد ﷺ.

---

(1) رواه أبو داوود والنسائي.

(2) أخرجه بن سعد ورجاله ثقات ولكنه مرسل.

(3) الاستيعاب.

دورها في السياسة:

وقد أسهمت صفية رضي الله عنها بجهد متواضع جدًا في السياسة، راضية أو كارهة بحكم أنها من أمهات المؤمنين.

* روىٰ ابن سعد في الطبقات عن مولاها كنانة أنه قال: قدمت صفية في حجابها علىٰ بغلة؛ لترد عن عثمان، فلقينا الأشتر[1]، فضرب وجه البغلة وهو لا يعرف راكبتها، فقالت لي: ردني ولا تفضحنىٰ، ثم وضعت معبرًا بين منزلها ومنزل عثمان، فكانت تنقل إليه الطعام والماء وهو رضي الله عنه في محفة الحصار.

* لقد وصفها ابن الأثير والنووي بقولهما: كانت عاقلة من عقلاء النساء، وأثنىٰ عليها ابن كثير فقال: كانت من سيدات النساء عبادة وورعًا وزهادة وبرًا وصدقة، رضي الله عنها وأرضاها.

عبادتها:

كانت صفية رضي الله عنها تجتهد في طاعة الله عزوجل لتستدرك ما فات من عمرها؛ فقد كانت تتمنىٰ أنه لو كانت أسلمت مع أول لحظة بعث فيها الحبيب ﷺ[2].

*كان حب صفية لرسول الله ﷺ يزيدها تعلقًا بالقرآن وشغفًا بحديثه، فراحت تنهل منهما وتستزيد، فروت عدة أحاديث قيل: إنها بلغت العشرة.

* أخرج أبو نعيم في حلية الأولياء قال: عن عبد الله بن عبيدة: أن نفرًا اجتمعوا في حجرة صفية بنت حيي زوج النبي، فذكروا الله وتلوا القرآن وسجدوا، فنادتهم صفية: هذا السجود وتلاوة القرآن فأين البكاء؟

*ووصفها أبو نعيم في ترجمته لها فقال: التقية الزاكية ذات العين الباكية (صفية) الصافية زوجة النبي ﷺ.

ولم تكتفِ صفية رضي الله عنها بتعلم القرآن وحديث رسول الله ﷺ؛ بل تعدت ذلك إلىٰ تعليمها للناس،س وزرع حبهما في نفوسهم، ودعتهم إلىٰ التدبر والخشوع، وحثتهم علىٰ الحفظ ما استطاعوا، ولئن كان ذلك منها في حياة حبيبها وأسوتها رسول الله ﷺ فإن ذلك قد زاد منها بعده لتملأ فراغها وتشغل وقتها.

---

(1) هو مالك بن الحارث النخعي، كان علىٰ رأس أهل الكوفة الذين تولوا الفتنة أيام عثمان رضي الله عنه.

(2) صحابيات حول الرسول..

ولم تنسَ فضل الصدقة وما تعود به علىٰ صاحبها من الخير، فكانت تحثُّ الناس عليها وتكثر من البذل والإنفاق ما وجدت إلىٰ ذلك سبيلاً.

وفي شهر رمضان من سنة خمسين وافتها المنية، وكانت مقبرة البقيع مستقرها رحمة الله تعالىٰ عليها.

خواطر وعبر:

1) من العجيب أن نجد إحدىٰ أمهات المؤمنين من أصل يهودي، وهذا الأمر لابد أن يكون له مغزاه، ويمكن أن نستنتج بعض المعاني من ذلك:

- أن الإسلام جاء للناس أجمعين، ولا يعادي إلا من عاداه.
- أن عداوتنا لليهود تنتج من شرهم وأفعالهم لا من نسبهم؛ فلقد أخذ النبي ﷺ يرسِّخ في أمهات المؤمنين هذه القيمة في العديد من المواقف، فها هو ينهىٰ عائشة عن اتهام صفية بنت حيي بأنها يهودية، وها هو يهجر زوجته زينب بنت جحش من أجل نفس السبب.

فالميزان الوحيد الذي يوزن به البشر في الإسلام هو التقوىٰ (**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**).

- أن اليهود علىٰ قدر عداوتهم وبغضهم للمسلمين إلا أن فيهم فئة قليلة مؤمنة، وقد آمن بعضهم، وأشار القرآن إلىٰ ذلك في سورة آل عمران عندما قال: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران:199].

فإن وجود أمًّا للمؤمنين لنا من أمة اليهود لخير دليل علىٰ ذلك.

2) إن الصفات الشخصية للسيدة صفية رضي الله عنها صفات مبهرة رغم أنها نشأت وسط الأحقاد، إلا أن قلبها يفيض بالصفاء والنقاء، وفي المواقف التي ذكر منها أكبر دليل علىٰ هذا.

3) في الحديث الذي جاء مع صفية وقال النبي فيه للشابين علىٰ رسلكما إنها صفية» دليل علىٰ مكانة صفية رضي الله عنها، وأن النبي ﷺ لا يريد أن يضعها موضع شبهة، وفي

ذلك عبرة لكل زوج في أن يحافظ علىٰ وضع زوجته وصورتها أمام الناس وكذلك فيه معنىٰ آخر:

وهو أن اسم المرأة ليس بعورة في الإسلام كما يظن بعض الناس ذلك فيكنىٰ عن زوجته، وأعتقد أن في هذا احترامًا لذاتية المرأة واحترامها.

4) إن صغر سن صفية رضي الله عنها عند الزواج من النبي ﷺ (17 سنة) وكانت قد تزوجت اثنين من قبل.. هذا يدل علىٰ أنها أوتيت عقلاً وحكمة مبكرين.

وإن المواقف التي مرت بصفية وانقلاب حياتها وتحويلها هذا التحول الشديد والسريع قد زاد - في اعتقادي- عمرها أعمارًا، وأثقل شخصيتها وزادها حكمة وتؤدة وحلمًا.

5) موقفها عندما كسرت لها السيدة عائشة الطبق.. موقف عظيم يدل علىٰ شدة الحلم؛ فنحن لم نسمع بمَ ردت عليها صفية رضي الله عنها، ولو كانت ردت لذكر الحديث ذلك، ولو ردت لكان معها كل الحق.

6) إن صلتها بأهلها بعد إسلامها وبرّها لهم لأكبر دليل علىٰ أنها تحمل قلبًا كبيرًا هفوفًا عطوفًا، ومشاعر تموج كموج البحر في طهارته ومقاومته لكل نجس.

* * *